الزعامة وصفات الزعيم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الزعيم هو الفرد — من الرجال او النساء — الذي يجمع حوله عدداً من المريدين والانصار لهم امل لأن يلتمسوا بواسطتهم غاية عامة ، وهذه الغاية في نظرهم جميعاً ذات شأن حيوي لهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه . وبديهي ان مثل هذا التعريف يقتضي ان يكون ثمة اتصال وثيق بين الزعيم والخاصة من انصاره في فهم هذه الغاية والاحاطة بجوهرها لان كل تنافر بهذا المعنى يوقف دولاب العمل وينتهي بالاخفاق . فوضع ابن سعود او الامام يحيى على رأس المحافظين او الاحرار في انكلترة هو من الأعمال المتنافرة مثل وضع المستر (بلدوين) او المستر (لويد جورج) على رأس الوهابية في نجد او الزيدية في اليمن . وقد يستطيع هذان ان يكيّفا نفسيهما بحسب المحيط فيغيران ويبدلان في مظاهرهما الداخلية والخارجية ليطابقا البيئة التي انتقلا اليها ولكن تنقصهما حينئذ العقيدة وهي من الزم لوازم الزعيم واهم شروط نجاحه . فالمتزعم الذي لا يؤمن بالقضية التي يتظاهر بخدمتها هو مثل المتنبيء الذي لا يؤمن بالدين الذي يدعو اليه واقل ما يتهم به التدجيل — والتدجيل والزعامة الصحيحة ضدان لا يلتقيان . على ان هذا الكلام لا يقتضي ان يكون الزعيم وسواد انصاره سواسية في فهم تلك الغاية بل قد يكون البون بينه وبينهم شاسعاً ، فجميع زعماء الشرق مثلاً ينشدون الاستقلال الناجز لبلادهم والشعوب من ورائهم ظهيرة ولكن نوع هذا الاستقلال والغايات الاجتماعية والسياسية والروحية التي يتضمنها على الناس تختلف كثيراً باختلاف التربية والمستوى العقلي والتهذيبي ، فكم رأينا من يظن ان مجرد اعلان الاستقلال هو الرجوع الى اوضاع القرون الوسطى بتفرعاتها جميعاً حتى ديوان التفتيش لمحاكمة الناس على عقائدهم الدينية . ويكفي ان يكون ثمة خطر يهدد الجماعة لتلتف حول من تعتقد ان في مقدوره ان يسير بها في طريق النجاة فتؤيده بقدر القوة الشخصية التي يزدان بها وبقدر شأن الخطر المتوقع . فلا غرو ان يظهر الزعيم على المسرح السياسي متى كانت الحاجة اليه ماسة كما تظهر البضاعة في السوق متى كان الطلب عليها حثيثاً

﴿ الوطنية والزعامة ﴾ : الوطنية هي في الاكثر منشأ الزعامة ، والزعيم هو مدره القوم المعبر عن رغبتهم وتتجلى صورتهم بثوبها القشيب في مرآته الصافية ، فلا بد ان تكون حلقة الاتصال بينهُ وبينهم وثيقة كما قلنا والا لم يعد زعيما لهم لان الذي يسبق الناس كثيراً او يقصر عنهم كثيراً يقطع اواصر الاتصال بهم ، ولا خطر على الزعيم مثل ان يتنزل في افكاره تنزلاً مفرطاً لاسترضاء الغوغاء واستجلاب الدهماء لانهُ يعرض بذلك نفسهُ لاستخفاف اهل الحل والعقد من العقلاء . على ان هذا

الكلام لا يتسع الزعيم ان يكبح جماح تطرفه تجنباً لاحداث هوة بينه وبين سواد الشعب بعيدة الغور ، بل رأينا جميع الزعماء السابقين لآرائهم اوتضوا ان يخففوا من غلوائهم قليلاً ويقصروا من خطاهم ليسيروا أمام الشعب وعلى اتصال به ، وشتان بين من يخفف خطاه لتستطيع العامة ان تلحق به فتمشي وراءه وبين من يتقهقر فيمشي وراء العامة ! ولما كان الوطن صلة معنوية قائمة على التجانس فمن اوائل وظيفة الزعيم تقريب الناس بعضهم من بعض وازالة تلك الحواجز المصطنعة التي اقامتها المصالح البائدة بينهم من غير ان يفادي بشيء جوهري من شؤون القضية التي رأس الناس من أجلها ، ولن تسمح الوطنية الحقة لمن اتخذوا من تلك الحواجز البالية جدراناً يؤلفون في داخلها الاقليات التي تهدد سلامة الدولة ان ينظموا حكومة خاصة ضمن الحكومة العامة

وتتكافأ التبعة الملقاة على عاتق الزعيم والخدمة العامة التي في مقدوره ان يسديها لامته . وكم سقطت شعوب وارتفعت اخرى بسبب ما لزعمائها من الخطايا والمزايا ، وقد تسير امة من الامم بخطى واسعة الى الامام فتصاب بموت زعيمها فجأة فتتراجع ، ويتحول انتصارها في ساحة الجهاد الى انكسار . ومن اعظم البلاء ان تلقى مقاليد الامور الى اناس قلت مواهبهم فتعوضوا من نقصهم الذاتي نسباً شريفاً يطنطنون به دائماً ويزعمون انه يغنيهم عن جميع الفضائل النفسية ، ومثل هذا النسب ولا سيما في الملوك يسهل على الطامع تسلم مقاليد الأمور . وقد قابل الاستاذ (بابندر) بهذا المعنى بين الامبراطور غليوم القليل المواهب وما جره على المانيا من النكبات وبين ابرهيم لنكولن رئيس الجمهورية الاميركية المعروف المتحلي بأعظم المزايا وما اسبغهُ على الولايات المتحدة من النعم الضافية . وقد استطاع ذاك على قلة نبوغه ان يستولي على المانيا بانتسابه الى بيت (هوهنزولرن) اللامع والتصاقه بالمجد العريق الذي خلفهُ الملوك السابقون والسمعة الطيبة التي تركوها وراءهم فلم يكن عليهِ عسراً مع شيء من الذكاء والتآمر وحسن التنظيم ان يحل هذا المحل اللألاء من قلب الامة الالمانية النجيبة وان يستر عيوبه ويخفي نقائصه الى ان اظهرتها الحرب العالمية . في حين ان ابرهيم لنكولن لم يصل الى المقام الذي حلّه في عين امته الا بمواهبه الذاتية التي ازدان بها فهو الذي رفع عماد البيت الذي نشأ فيه وشرف الاسرة التي نزل من اصلابها . وهكذا نرى انهُ اذا كان على المرء ان يباشر عمله صعوداً من الذيل الى القمة فلا بدَّ له ان يكون قوياً متحلياً بطول النفس الذي يمكنهُ من هذا الصعود ، ولكنهُ اذا باشر عمله بالعكس نزولاً من القمة الى الذيل فهو ليس بحاجة الى مثل هذه المزايا ويكفيه مظاهرها فقط . ينظر العظامي دائماً الى الماضي ويتطلع الى الآباء والجدود فيزول منهُ الاستقلال والاعتماد على النفس بينما ينظر العصامي حواليه ليجد الوسائل النافعة والسبل المؤدية الى تحقيق اغراضه فتقوى عزيمته ويشحذ ذهنه . لا جرم ان يكون الزعيم بعد ما قرع دهره وبزّ خصومه مظهر الجمهور متحدة ورأس القوة منظمة متجهة وهو الحل يرفع الاثقال مستمداً طاقته من ارادة الشعب ومستنداً الى عاتقه فاذا ما اخفق فقد يكون السبب واحداً من ثلاثة :

شدة العقبة ، او ضعف الارادة العامة ، او صغر المخل نفسه ، وقد تجتمع هذه الاسباب كلها او بعضها
واذا شبهنا الزعيم بالمخل فلا نعني ابداً انهُ مجرد آلة بيد الشعب لرفع الاثقال بل هو آلة ممتازة بقوتها الذاتية المتفوقة وآثارها الباهرة في جميع من آمل بها . وقصارى القول يجب ان يتحلى الزعيم بالخصائص الآتية :
(اولاً) الايمان المطلق بالقضية التي يعالجها فلا يضمر في شأنها شيئاً ويظهر شيئاً آخر كما يعمل المنافقون ، ولا نعرف وضعاً من الاوضاع المقدسة اتخذه المنافقون مطية مثل وضع الدين ، وتأتي بعده الوطنية ، فبانتشارها وبدخولها في الصميم من قلوب الجماعات المضطهدة والمغلوبة على امرها ظهر على المسرح بعض المتزعمين المنافقين الدجالين عن اتخذوها مطية فساوموا عليها وملأوا بطونهم من موائدها وحافظهم من ثمارها ، ولكن ليس من الصعب على المتتبع ان يفضح الدجل والنفاق لاننا وجدنا من ألزم لوازم الذي يقف موقف المرشد او المصلح او الزعيم من الناس ان يثير احترام الخلص من المتصلين به مباشرة كزوجه واخوته مثلاً وان لم يعتقدوا بصحة دعوته ، لان الاخلاص للمبدأ والتفاني فيه يحمل المرء على احترام المتحلي به ولو كان خصماً فما بالك وهو القريب العزيز . وان رجلاً يعجز عن اكتساب الحرمة من اهل بيته والمتصلين به اتصالاً وثيقاً — قمين بان لا يكون محترماً في نفسه بالغاً ما بلغ من التظاهر بالخدمة العامة والتفاني في سبيل القوم . (ثانياً) ان يكون رأي الزعيم في المسائل التي تدور عليها قضية الشعب واضحاً كالشمس في رابعة النهار وكل ابهام في موقفه الاساسي يدعو الى اضطراب انصاره وحيرتهم ويتركهم عرضة لدعايات المناقضة والانحياز الى الآراء المخالفة . (ثالثاً) الثبات على المبدأ ، وهذا يقتضي ان يكون الزعيم بعيد النظر متحلياً بقوة العقل ومتسلحاً بالتربية الصحيحة وتحليل ما يطرأ من الطوارئ ، حتى لا يرتكب من الخطإ ما يضطره الى تغيير رأيه بصورة تلفت الانظار ، ولا يعني هذا الكلام ان الزعيم يجب ألاَّ يخطىء في آرائه ابداً ولا فيما يتوسل به من الوسائل فالخطأ يصح حتى على اكبر الزعماء والقواد اذا كان خطأ معقولاً واما الخطأ المنكر فهو البديهي الظاهر الذي لا يجوز ان يقع فيه العقلاء

والزعيم الذي لا يتمسك بعقيدته تمسك المؤمن بعقيدته الدينية المقدسة ويستعد لبذل الغالي والرخيص في سبيلها يحرم من الثابتين على ولائه القائلين بقوله ، ويمكن خصومه من تدبير الحلات عليه ، ويكون التساهل في العقائد الاساسية التي هي محك النظر ومدار العمل مهلكة له ولمن يلوذ به . فالزعيم الاشتراكي الذي يحاول تمشية الحال مع الرأسمالي المحافظ المتطرف يكون مثله كمثل الداعية الى التنزيه والتوحيد المتساهل مع الشرك وعبادة الاصنام ! على ان التصافي بين المتنازعين والتسوية بين المتخالفين هما من الامور الواجبة في كثير من الاحيان — على شرط ألاَّ تتناول الشؤون الجوهرية التي هي اصل المذهب ومبنى العقيدة

وعلى كل حال فاذا جاز للزعيم ان يغير رأيه مرة في شأن من الشؤون المهمة — ولن يجوز ذلك في عقيدة من العقائد الجوهرية — فمن المحال ان يغيره مرتين اثنتين ويبقى محافظاً

عن تجمته ، فإن هذا الكلام من بعض المتزعمين الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتقلبون في المبادىء الاساسية تقلب الحرباء ويدورون في العقائد الجوهرية دوران دواليب المطاحن مع الهواء !

ومما لاشك فيه ان عوارض تعرض وعقبات تطرأ تحتم على من بيده زمام المركبة ان يتجنب الصدمة ، ولا غبار على الزعيم في مثل هذه الاحوال والظروف والملابسات التي لا شأن لها في الاساسيات أن يتسامح ويتساهل لان الصلابة في الحق لا تعني العناد العقيم والانكسار على الصخر . ثم ان الكياسة شيء والتشدد الاعمى شيء آخر ، والفظاظة والغلاظة في الطباع تدعو الى الانفضاض من حول الزعماء ولو كانوا في مقام الانبياء ، بل اننا رأينا بعض الاخصار من غلاظ الطبع سبب نكبة على الزعيم الذي يوالونه ، وقد يرجع الكثير من الحملات التي تحمل عليه الى الخصومة التي يخلقها في الناس هؤلاء الانصار والاتباع . وتطلق في الانجليزية كلمة Crank على المهووس الذي هو في عقيدته اقرب الى المتولّع او المجنون في امر واحد وقد يردد الكلمة الدالة على هوسه كما يردد ذو الجنة الكلمة التي ارتكز عليها جنونه من غير ان يفكر فيها ، وهذا ممنوع على كل رجل متزن دع عنك الزعماء ، لان الجنون حتى في اسمى الامور لا يدل على رجحان عقل ، واذا جاز لبعض المتزعمين من اهل القرون الوسطى ان يلهوا حولهم الانصار بترديد بعض الكلمات الجذابة المقدسة من غير ان يفقهوا معناها فزعامة مثل هذه لا تتم في عصرنا وهو عصر التحليل العقلي غير الجنالة من الناس

وكم رأينا في هذا الشرق من يطمع في الاستيلاء على عقول الناس وليس له من رأس مال سوى الصياح «فليحيى الوطن» ومن خطة سوى «اتقاء الاعداء بتعضهم وقبضهم في البحر قبل كل عمل» وغني عن البيان ان مثل هذه الخطة تجاه العدو القوي المتمكن لا تعني سوى الفوضوية السياسية وترك كل عمل يرجى من ورائه زحزحة الكابوس والخلاص منهُ تدريجيًّا

وعلى ذكر المتولع والمهووس نقول ان الاستاذ (بايندر) قسم العقول الى ثلاثة نماذج فالنموذج الاول هو العقل الذي ليس في مقدوره ان يرى المسألة المعروضة الا من ناحية واحدة فقط ، وهذا هو عقل الرجل البسيط السخيف الاحمق ، والنموذج الثاني هو العقل الذي في طاقته ان يرى ناحيتي المسألة ولكن بالتناوب والتتابع لا في وقت واحد ، والنموذج الثالث يرى النواحي كلها معاً فيزنها بالميزان ويقابل الواحدة منها بالاخرى قبل ان يصل الى حكم نهائي ثابت ، ويدعى هذا النموذج العقل الاستقرائي التأليفي وهو مما اتصف به جميع الزعماء العظام . قال (بايندر) وليس على الزعماء ان يصلوا الى حكم نهائي وثابت فقط بوزن كل وجه من وجوه المسائل ومقارنته بل عليهم ان يطبعوا حكمهم هذا في اهل النموذج الثاني بان يبينوا لهم ان المسألة يجب ان ترى من وجوهها كاملة في آن واحد ، وان يقنعوا اهل النموذج الاول بان القضايا لن تحل بالاقتصار على رؤيتها من جانب واحد . وما من امة لم تتحلَّ بهذا النمط من الزعماء استطاعت ان تعمل اعمالاً عظيمة خالدة

ثم لا بد للجماعة في مجموعها من نسبة كبيرة من اهل النموذج الثاني وهم ممن يخاطبون بالعقل

وتـرى عليهم الحجج المنطقية ، واما اهل النموذج الاول فانهم يستطعون عادة من بعد المقاومة والاصرار على وجهة نظرهم ذلك لان براهينهم ليست من مواليد ادمغتهم بل مستعارة غالباً والمرجح انهم يقبلون البرهان الجديد في نهاية الامر على شرط ان يلقى في روعهم ان هذا البرهان اذا هو الشيء الذي يدور في خلدهم ويدينون به . (رابعاً) ان يتحلى الزعيم بشخصية باهرة لها شيء من السحر العجيب في ما حولها من الانصار، ولن يتأتى ذلك في مثل هذا العصر الذي نعيش فيه الا بالتربية الصحيحة وما تحتاج اليه عادة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان . ومقياس هذه التربية البيئة الذهنية التي يعيش فيها الزعيم فاذا كان الصرف والنحو والاعمال الاربعة وشيء من البيان والاصول والفقه كافياً ليتسلح به الرجل في نجد او اليمن فان هذا السلاح لا يبهر احداً في مصر وسورية والعراق

وعند الاستاذ (باينذر) ان التربية المطلوبة في الزعماء تعني كبر العقل والاستعداد العام للتقدم وترك الحسن في سبيل الحصول على الاحسن . ولما كانت بعض الصناعات كالحقوق والكهنوت مثلاً تقاوم كل تغيير عادة لانها نشأت على اعتبار ما يقرره السلف مقدساً وكان معظم الحكام والزعماء الذين ظهروا على المسرح السياسي هم من اهل هاتين الطبقتين من الناس فلا غرو ان يزرعوا في ذهن المجتمع كلاً منشوداً خلاصته الا تغيير ولا تبديل للاوضاع القائمة ، ولما كانوا من اهل الطبقة التي تفردت بالتربية والثقافة غالباً لم يتعسر عليهم ان يطبعوا مقاييسهم الخلقية والاجتماعية في سواد الناس مما ادى الى شيء من الخنوع وزوال الابتكار في الافراد . ان هذه المحافظة الضيقة تقتضي من الزعيم في القرن العشرين ان يكون مؤمناً بامكان التغيير قائماً بان المجتمع الذي فيه قابل للتكامل والارتقاء وان لا شيء في العالم مقدس الا اذا كان نافعاً للناس

(خامساً) التحلي بالشجاعة الادبية وهي رأس فضائل الزعيم وربما سترت فيه عيوباً كثيرة وعادلت بعض المزايا المهمة الناقصة فيه ، والشجاعة الادبية في الزعيم للدفاع عن الحق هي مثل شجاعة الجندي في ميدان القتال فكما ان هذا لا يكون اهلاً لحمل البندقية ومكافحة الاعداء الا اذا كان صنديداً كذلك ذاك لا يجوز له ان يرفع علم الوطنية ما لم يكن جريئاً في الدفاع عن حقوق الامة في ادق ساعاتها واخطر ازماتها . ولعل الوضوح الجلي الذي طلبنا ان يكون في رأي الزعيم يرجع الى هذه الشجاعة الادبية لان الزعيم متى كان ضعيفاً في نفسه يحاول تجنب النزال والطعان بالتستر وراء الابهام والابهام والالتجاء الى التقية والموازنة

على ان امراً واحداً ليس من شأنه الاعلان عنه ابداً وهو الخطر المحدق بالامة متى كان ذكره يدعو الى القنوط ، فزرع الامل هو من اوجب الواجبات، وكم من زعيم من اكبر الزعماء كان يضع في ساعة الخطر الشديد وسائل النجاة في ذهن الشعب امراً سهل التناول قابل التطبيق . والرجل الذي لا يؤمن بقوة الارادة العامة على ازالة الموانع والعقبات ينقصه عنصر جوهري من عناصر الزعامة ، ولولا الامل بالنجاح لبطلت وسائل الكفاح